بعض قطع

الأصنعة الإسلامية في استانبول

للنجيب عبد الرحمن زكي

روى ابن إياس [1] انهُ لما ملك السلطان سليم الشهابي قلعة حلب استولى على ما كان مودعاً بها من الاموال والسلاح . وقدّرت أموال السلطان الغوري بمائة الف الف دينار . وقد أفاض المؤرخون في ذكر الكنابيش والسروج الذهب والبلور والمقيق والخلع التي بالطرز المذهبة . وغير ذلك من التحف الفاخرة التي عثر عليها في القلعة

وبعد الاستيلاء على مصر وتهدئة أحوالها وتسكين اضطراباتها أمر السلطان سليم بترحيل طائفة منتخبة من المهندسين والبنائين والنجارين والحجارين والحدادين والمرخمين والبلاطين وجماعة من الفعلة . وقيل ان السبب في ترحيل هذا الجمع من رجال العمارة الى الاستانة ، كان رغبة السلطان في انشاء مدرسة تشبه مدرسة السلطان الغوري بالقاهرة [2]

وكان رجال الشهابيين وأعوانهم يمرون في أحياء القاهرة ومعهم جماعة من المؤرخين ، فيهاجمون البيوت ويأخذون ما فيها من الرخام الشهابي والزرزوري والملون . فخربوا عدة قاعات من اوقاف المسلمين وبيوت الامراء وقاست دور بولاق والصليبة شيئاً كثيراً من ذلك . وقد أورد ابن اياس ذكر قاعة الشهابي احمد ناظر الجيش التي كانت على بركة الرطلي بالفجالة . كذلك أخذ الوزراء في نقل الكتب النفيسة من مدارس المحمودية والمؤيدية والصرغتمشية وغيرها ووضعوا ايديهم عليها [3]

وروى ابن إياس كذلك انهُ في يوم الجمعة التاسع والعشرين من جمادى الاولى سنة ٩٢٣ هـ (يوليو ١٥١٧) سافر الى الاستانة بعض العلماء المصريين البارزين وبصحبتهم جماعة من صنّاع الزردخانة [4] . وبعد أيام لحقهم عبد الباسط بن تقي الدين ناظر الزردخانة وولده زين . وقدر

(١) ابن اياس مؤرخ مصري (٨٥٢هـ — ٩٣٠هـ) له مصنفات كثيرة أشهرها كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور — راجع الجزء الخامس ص ١٤٩ طبعة استانبول لجمعية المستشرقين الالمانية

(٢) المصدر السابق ص ١٧٥و١٧٨ (٣) المصدر السابق ص ١٧٦ (٤) المصدر السابق ص ١٨٢و١٨٣ . وهم الذين يسمون الزرد المدني

ابن اياس عدد الذين أخذوا من مصر الى استانبول ألف وثمانمائة شخص وقيل دون ذلك

ولم يقف الامر عند هذا الحد . فان المؤرخ الفاضل وصف في حوادث جمادى الآخرة سنة ٩٢٣ اضطراب أحوال القاهرة فقال وصار العثمانيون يمكرون الناس و يصعدون بهم الى القلعة . وكان الغرض من هذا جر المكاحل النحاس (المدافع) الكبار وانزالها الى شاطىء النيل لشحنها في سفن كبيرة تقصد الاستانة . وكانوا قبل ذلك بمدة انزلوا العمودين السماقين وقد نقلوهما من الايوان الذي بالقلعة . وسحبهما الناس بصعوبة وبمشقة

ولما غادر السلطان سليم الديار المصرية (٢٣ شعبان ٩٢٣ — اغسطس ١٥١٧) أخذ معه الف حمل محملة بالذهب والفضة . علاوة على تحف السلاح والصيني والنحاس المكفت والخيل والبغال والجمال وغير ذلك . مما غنمهُ الوزراء والجند من الاموال . . .(٥)

انتقال الصهريج القاهرة الى استانبول

هذا بعض ما رواه ابن إياس عن الغنائم الفنية التي فقدتها مصر اثر الفتح العثماني والتي انتقلت الى القصور السلطانية باستانبول والمساجد وبيوت الامراء او التي أودعت بالقلاع والابراج القديمة وغيرها عوامل الاهمال والنسيان خلال خمسة قرون . وما زال يحيط بمجموعة الأسلحة القديمة غموض عجيب . فأين تلك المخلفات النفيسة التي أتى على مجمل وصفها المؤرخ المقريزي وقد كانت تعمر بها خزانات السلاح ايام الفاطميين فالأيوبيين والمماليك . وكانت هناك آلاف القطع من الخوذ والدروع والتجافيف والسيوف المحلاة بالذهب والفضة والسيوف الحديد وصناديق النصال وجعاب السهام وصناديق القسيّ ورزم الرماح الزان والزرد والبيض(٦)

وما يعرض اليوم من هذا السلاح لا يعتبر شيئاً يذكر بجانب ما تحتويه اقبية ابراج القلعة او مستودعات المتحف العسكري او معرض السلاح بمتحف طوب قبو سراي

كان السلطان سليم جندياً كاملاً . وكان من الطبيعي بعد تغلبه على سلطان مصر أن ينقل الى خاصة ملكه آلات القتال الوفيرة التي امتلكها المماليك او التي عثر عليها في حصون الاسكندرية وقلعة القاهرة

وبقيت هذه الاسلحة في مكانها الى أن عرف رجال الفنون الترك قيمتها فشاهدت النور بعد خمسة قرون . وامتدعوا لها الدكتور شتوكلين(٧) احد الاخصائيين في الاسلحة الأثرية

---

(٥) ابن اياس . ج ٥ . ص ٢٠٣ (٦) الدكتور زكي محمد حسن — كنوز الفاطميين ص ٥٦ . وقد أجمل المؤلف ما رواه المؤرخ المقريزي عن خزائن السلاح في العصر الفاطمي . ص ٢٦٨ - ٢٧٠ (الطبعة الاهلية) (٧) العالم الالماني هانز شتوكلين Hans Stocklein كان مديراً للمتحف الوطني بفيينا وأميناً لمتحفها العسكري ؛ وقد توفي منذ سنوات

فظلّ يصل السنين الطوال يفحصها الى ان جمع في معرض مجموعة منها في طوبقبو سراي وما فتئت معظم قطع السلاح المصرية والايرانية مختفاة في غياهب الأقبية والمخازن المجهولة . كما وصل بعضها الى متاحف لندن ودرسدن وفينا حيث تعرض اليوم فيها

وقد روى الدكتور مارتن (Dr. Martin) وهو مستشرق اسوجي[٨] انهُ رأى ذات مرة منذ ٣٠ عاماً صندوقاً كبيراً مملوءاً بالزرد والملابس المعدنية ودروع الخيل لا يقل عددها عن مائة قطعة تعرض للبيع بأرخص الأثمان في سوق من أسواق المزاد بلندن . كان منظرها لا يبعث على اهتمام من لا يعرف حقيقتها ولا بدَّ ان تكون وقعت في أيدي من أدرك حقيقة أمرها . وهي اليوم تزين أبهاء متاحف الفنون

ولا يغيب عن البال ان معظم الخوذات والدرقات التي تعرض في أبهاء دور التحف الأوربية وعليها العلامة المستديرة الصغيرة (الرنك) تعد بلا شك من غنائم سليم الاول . وقد أثبت أصل هذه العلامة المغفور له عبد الحميد مصطفى باشا في محاضرة ألقاها بالمعهد العلمي المصري عام ١٩١٩[٩] فقال انها رنك الساقي (الدوادار) أحد موظفي البلاط المملوكي الى قبيل الفتح العثماني لمصر . وليست هذه العلامة كما كانت تظن طغراء السلطان محمد الفاتح او شارة كتبة « سنت إيرين » مقر المتحف العسكري في استانبول

واذا صحَّ ما يقوله الدكتور (هانز شتوكاين) عن بعض السيوف القديمة التي تنتمي الى العصر الأموي او العباسي كانت بلا جدال أنفس قطع السلاح في معرض أساجة طوبقبوسراي . وتراها اليوم نصالاً بلا مقابض . كما أنها فقدت الكتابة المرقومة على نصالها بفعل الصدأ المزمن الذي أصابها[١٠] ولا ننسى عمل شتوكاين وهو من كلفتهُ الحكومة التركية منذ أعوام بحث مجموعات السلاح القديم وفحص بعض قطعها ودرسها . ولا شك انهُ كان عملاً جليلاً جدًّا . وان كانت المنية قد عاجلتهُ قبل طبع نتائج بحوثه

وما زلنا نجهل تماماً حتى اليوم مقر مجموعات السلاح المصري التي نقلت الى الاستانة . يبدو ان الدكتور مارتن في رسالته آنفة الذكر قال انهُ يعرف مكانها . وهو في خارج استانبول في مخزن قديم للسلاح — حيث تعد بالآلاف — وكثير من القطع يحمل العلامة التركية « أخذت في الاسكندرية أو أخذت في القاهرة »

ان درس النقوش والكتابات المرقومة على تلك الاسلحة يستغرق من الاخصائيين وقتاً

(٨) كتب ذلك في رسالة اطلعت عليها كان أرسلها الى السيدة الفاضلة مسز دبلو شير المؤرخة المعروفة

(٩) نشر هذا البحث في مجلة Burlington Magazine في ديسمبر عام ١٩١٩ (١٠) راجع مجلة Ars Islamica

طويلاً . وكان « أتاتورك » قد رحب كل الترحيب بالبداية في العمل لولا وفاة مارتن وستوكلين فوقف دولاب العمل الى اليوم . . . انها لمجموعة غنية وأية نفاسة ، عشرات الآلاف من شتى الخوذ والزرد والدرق والنصال والاعلام والرماح والبلط والقسي المصرية و... الخ مما قهر بها سلاطين مصر وامراؤها منازعيهم او دافعوا بها عن وادي النيل

وتقع الانظار في معرض السلاح بمتحف توپ قپو سراي على قميص من الزرد عليه رنك السلطان قايتباي وخوذته . ولا يعلم بالتدقيق هل كانا للسلطان أم هما محملان اسمهُ فقط . وهما يذكراننا بزرد طومان باي المعروض في متحف الفنجراد . فهو ليس له، لحداثة صناعته وعدم مطابقة فنه للفن الاسلامي الوسيط . ونقرأ على بطاقة باللغتين التركية والفرنسية سيف الخليفة معاوية مؤسس أسرة الامويين وخامس خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم ثم نرى سيفاً منقوشاً عليه تسمية اسماء عمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد وقايتباي . فنرى ان ذلك السيف قد ملكه بالتوالي السلاطين العظام الثلاثة . — هذان السيفان النادران — اذا حققت النقوش التي عليهما يكونان من صناعة القرن الاول الهجري. ويكونان قد إنتقلا على يد الاسرة الاموية الى العباسيين . ومن هؤلاء انتقلا الى المماليك المصريين حتى ملكهما السلطان سليم اثر موقعة مرج دابق المعروفة . ونرى كذلك سيوف المعتصم بالله آخر خلفاء العباسيين وقايتباي وطومان باي وقنصوه الغوري كما نرى في الجانب الآخر من نفس القطر سيف السلطان محمد الفاتح وبايزيد الثاني وسليم الاول وسليمان القانوني ونقرأ اسماءهم منقوشة على نصالها ونجد بعضها مؤرخاً . وفي هذا المعرض الذي يباهي بانفس مجموعة من السلاح الشرقي في العالم أجمع يجد باحث الأسلحة الشرقية أكمل سلسلة واضحة الحلقات يستطيع درسها تبعاً وعلمياً وتاريخياً وعدد قطعها في الاصل يربي على عشرة آلاف قطعة . انتخب الدكتور ستوكلين منها ما نجمله في هذا المقال القصير(١١)

تقابلنا خمس خزائن . تحتوي اولاها على خوذات مملوكية من صناعة القرن الخامس عشر . ومعها مجموعة فريدة من السيوف ، من صناعة القرن الاول الهجري الى ان نشاهد مجموعة من سيوف سلاطين مصر المماليك . ونرى في الخزانة الثانية سيفي السلطان قايتباي وقنصوه الغوري مع خوذات إيرانية من صناعة القرنين الرابع عشر والخامس عشر

وفي القطر الثالث عرضت بعض الخوذات الايرانية (القرن السادس عشر) وخوذة قوقازية وسيوف إيرانية (القرنان السادس عشر والسابع عشر) بعضها مطعم بالاحجار الثمينة وتمتاز بمقابضها الجميلة(١٢)

---

(١١) راجع دليل متحف السلاح طوپ قپو سراي ، طبعة استانبول (١٢) الدكتور زكي محمد حسن — الفنون الايرانية في العصر الاسلامي صفحة ٢٥٣ — ٢٥٩ وما يليها ففيه ذكر ما وزع منها في متاحف أوربا

وعرضت في القطر الرابع خوذات وسيوف تركية خلافة العصور (من القرن الرابع عشر الى السادس عشر)

وفي القطر الخامس يرى بجانب بعض الخوذات التركية (القرن السادس عشر) سيف السلطان سليم الاول . وسيوف ابنه سليمان القانوني وسليم الثاني ومراد الثالث ومحمد الثالث وعثمان الثاني ومراد الرابع وسليم الثالث الى أن تشاهد مجموعة من سيوف القرن الثامن عشر الى العصر الحديث

في تلك القطرات الخمسة رأينا سيوفاً عربية ترجع الى القرن السابع وسيوفاً ايرانية وتركية تمتد بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر . وقد تكون المجموعة التركية فريدة في بابها . فان كل سلطان تمثل بسيف أو سيفين او أكثر

أما الاسلحة النارية فقد عرض منها شيء كثير يخرج عن موضوع هذا المقال . كذلك الشارات الحامية Ensigns يتصل معظمها بالسلاطين المماليك في مصر من القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر . وبعضها عليه أسماء رقوق وأينال وقايتباي وقنصوه الغوري وطومان باي وغيرهم . وهي وحدها تستحق درساً مستقلاً

وتقابلنا في معرض السلاح من القطع المصرية اللأمة [١٣] التي كانت للسلطان قايتباي يجاورها بعض الخوذات وواقيات الذراع وصفائح الجياد المدنية وجميعها من صناعة مصر بالقرن الخامس عشر

ولا يفوتنا قبل اتمام هذا المقال — القول بازدهار صناعة السلاح في مصر . وبالأخص من أيام المماليك الى اوائل القرن السادس عشر . ويؤيد هذا ما زاد معروضاً من شتى أنواع الاسلحة المصرية والسورية في المتاحف الاوربية . ثم جاء تدهور تلك الصناعة بانتقال صناعها وفنانيها الى الاستانة

لقد عني رجال الآثار بدرس الاسلحة القديمة التي عرفت في الغرب درساً مستفيضاً وكتبوا عن تاريخ تطورها عشرات المجلدات بل مئاتها وصنفوا المجلدات الفخمة للمجموعات النفيسة التي تحتوي عليها دور التحف العامة والخاصة

وعلينا أن نقوم بدرس الاسلحة في الشرق الادنى بادئين بالمجموعات التي تحتويها دور التحف المصرية . والتي يمتلكها بعض الهواة . بعد ما ظلت عصوراً طويلة بدون عناية

قال تنيسون : « أن صوت كل شعب هو السيف الذي يحميهم او السيف الذي يخذلهم »

"The voice of every people is the sword that guards them, or the sword that bends them down"

(١٣) لباس القتال المعدني والذي يعبر عنه بكلمة cotte de maille الفرنسية و mail-coat الانكليزية